

## المحاضرة حول ايمانويل كانط:

من العلامات المميزة في القرن الثامن عشر، تزايد وتيرة القلق المستمر، والبحث الدائم عن منفذ للخروج من المأزق الفكري والمعرفي الذي تركته التوجهات العقلانية والتجريبية والذي لم يحقق الاستقرار على رؤية واحدة في تصور الحقيقة التي تقود المجتمع الأوروبي إلى ما هو أفضل، هذه التفاعلات الفكرية، أدت إلى بروز النقد الذي بدأ يفرض نفسه بقوة في جو حافل بالثورات العلمية والانجازات الثقافية؛ ويؤدي مهام محددة ومستعجلة لنوع من المشاكل التي تواجه الحياة الاجتماعية والسياسية كمنهج للتفكير في العلوم والدين والميتافيزيقا، فما طبيعة الاستراتيجية النقدية التي اعتمدها كانط في بناء نسقه المعرفي؟

### 1 - التأسيس الفلسفي للنقد:

لقد جاء "كانط" في ظروف فكرية وثقافية متميّزة، أصبحت فيها الحاجة إلى النقد (أو تأسيس النقد) أكثر من ضرورة، على أساس أنه سيعطي للفلسفة موقعا اجتماعيا مهماً داخل المؤسسات في ممارسة وظائفها، لذلك كان السؤال: هل الميتافيزيقا ممكنة؟ أو كيف تكون المعرفة بالعقل ممكنة؟ مثل هذه الأسئلة عجلت بإدخال الفلسفة إلى المؤسسات الجامعية وتحويلها إلى مادة تعليمية وموضوع بحث .

هذه التدايعات الفكرية، جاءت في عصر بدأت فيه حركة التنوير تلقي بظلالها على مختلف الأصعدة وتناضل ضد فكرة اتصال الإنسان بالله عن طريق الوحي وتحطيم كل أشكال التصور الديني للحياة، " وقد استطاعت هذه الحركة أن تفرض نفسها بهذا العمق، لأنها أخذت على عاتقها أن تخوض معارك ضارية، فكرية وثقافية وسياسية ودينية. فعقلانية التنوير ليست مجرد تيار فكري أو مذهب فلسفي يؤمن بالعقل كمبدأ معرفي وأخلاقي، بل هي حركة فكرية وثقافية شاملة جعلت من العقل قضية حيوية تناضل من أجل توطيده في كل المجالات" <sup>1</sup>.

إن فعل وأثر هذه الحركة التي اتجهت إلى المساس بكيان العقلانية، قد رسمت فلسفة تحمل لواء النقد فتعمل على تفكيك ما يوجد بداخلها من مفاهيم وتصورات ثم الحكم عليها من الناحية التجريبية عندما يتم عرضها على الواقع. "لقد تحولت الفلسفة العقلانية عند كانط

بمناسبة ارتباطه بالفلسفة التجريبية الإنجليزية، وبالأخص كما تتمثل عند هيوم الذي يقول عنه إنه أيقظه من نومه الميتافيزيقي، أي من قبوله لعقلانية لبيتز. ذلك أن الفلسفة التي سادت أثناء القرن الثامن عشر في أوروبا لم تكن فلسفة ديكارت أو أتباع ديكارت، بل كانت فلسفة لوك وهيوم<sup>1</sup>.

وبهذا نرى، أن "كانط" قد وضع تصميمًا فكريًا يسمح له بالتغلب على دغمائية "فولف" وارتياحية "هيوم" جميعًا بنقد- أي بتمحيص نقدي- يصف في الوقت نفسه سلطة العقل ويحددها ويعمل على إحيائها، لأن الدغماطية والارتياحية والنقد، هي في نظر "كانط" المراحل الثلاث الصاعدة في تطور الفلسفة الحديثة، لأن ملامح المشروع المعرفي الكانطي من الناحية التاريخية يوجد في الوقت ذاته في علاقة وثيقة مع الفلسفة العقلانية والتجريبية متبعا تطور المراحل الفكرية والإشكالية التي سادت في مواقفهما، فلم يغفل عن استدراج فكرة الذات وفحص محتواها المعرفي والمبادئ التي تقوم عليها في تنظيم تصوراتنا، "فالفهم يفترض وجود مفاهيم قبلية (المقولات) التي تنتج بدورها أشكال الحكم، هذا هو الموضوع الذي يسميه كانط بالاستنتاج الميتافيزيقي للمفاهيم"<sup>2</sup>.

## 2 - نقد الكوجيتو الديكارتي:

قام "كانط" بتوجيه سهامه النقدية إلى "الكوجيتو الديكارتي" الذي هو أساس نسق "ديكارت" الفلسفي، فعاب عليه أنه لم يتمكن من تحديد موضوع التفكير، لأن وظيفة الفكر من غير وجود صلات تربطه بالموضوعات أو بعالم الأشياء سيكون مجرد فكر فارغ أجوف. لكن هذا لا يعني أن جل معارفنا تبدأ مع التجربة، بل تكمن في الحكم الذي يصدره فكرنا على هذه الموضوعات، فالحكم أو المعرفة لا يتحقق إلا بوجود الموضوع أو عالم الأشياء وإذا وقع الاتصال بين الذات العارفة وموضوع المعرفة تصبح فيه المعرفة مبنية على صورة ومادة، فالصورة يضمنها العقل أما المادة فتضمنها الحواس كما يقول "كانط": "المفاهيم بدون حدوس حسية تظل جوفاء، والحدوس الحسية بدون مفاهيم تبقى عمياء"، فالعقل يقوم بجمع وتنظيم الشتات المعرفي الذي تجلبه الحواس من العالم الخارجي، وتأتي وظيفة الفهم

لإعطاء لها صورا، وهذا يعني إخضاع الحسي لمعطيات العقل ومبادئه كمبادئ قبلية متعالية عن التجربة مثل: الزمان، المكان، الإضافة، السبب، الكم، الكيف.

إن ما يمكننا معرفته، هو ظواهر الأشياء، أما الأشياء في ذاتها أو (النومين)، فذلك ما لا سبيل إلى معرفته، فالحقيقة في نظر "كانط" تظل نسبية ومحدودة بحدود التجربة ولا تتعدى مجال الظواهر الذي هو مجال المعرفة العلمية، وكلما تجاوزها العقل لبحث في موضوعات ميتافيزيقية (الله، العلم، النفس)، فإنه ينتهي إلى الوقوع في التناقض.

يجب في هذه الحالة، أن يُنظر إلى المفاهيم الفلسفية أثناء السؤال عن هويتها على أن لها بيئتها الأصلية التي تشهد على ميلادها والثقافة التي ساهمت في ظهورها، فهي "تولد في إقليم محدد من الأرض، تنشأ وتتزعج معرفيا في فترة معينة، ضمن نسق تنتظم علاقاتها به، فتتربط فيما بينها وتتعايش معا دون أن تتداخل حدودها، وتركن إلى المجال الفلسفي والمعرفي ذاته. ويربط المفهوم صلات وعلائق ما بين الإنسان والآخر داخل الإقليم، وبينه وبين مختلف تفاصيل الكون"<sup>1</sup>. هذا ما يدل على أن "كانط" استفاد من الفلسفة العقلانية الفرنسية ومن الفلسفة الانجليزية التجريبية اللتين أثارتا الإشكال المعرفي في طبعته الفلسفية.

وبهذا برزت صورة النقد المعرفي في العصر الحديث، فأخذت تسترشد بسلطة العقل، وفي دفع السؤال الذي فجره "كانط" إلى النظر في المعرفة قصد به الوقوف به على حدود العقل وممكناته النظرية والعملية، خصوصا إذا أخذنا في الحسبان أن مسألة النظر في المفاهيم يجب أن لا تحصر في نطاق ضيق، بحيث يتم رفضها رفضا مطلقا أو قبولها قبولاً مطلقاً، بل يجب ردها إلى المعمار المعرفي والتاريخي الذي ساهم في ظهورها.

### 3 — تجديد العمل الفلسفي:

الفلسفة في نظر "كانط" تفكير في الممكن، سواء كان مجال هذا الممكن هو العلم أو الدين أو الميتافيزيقا، فلا يكون هذا التفكير ممكنا إلا بالمفاهيم، فالمفهوم يعتبر منتوجا للفهم؛ فهو يمثل معرفة بحدوده أو هو إمكانية للمعرفة، أما الفكرة فتعتبر منتوجا للعقل وتمثل كيانا

غير مشروط للمعرفة، لأن الاهتمام بالمفهوم هو غير الاهتمام بالفكرة أو المثال المجرد. فالأفكار تمتلك إمكانية واسعة أن تحيلنا إلى حقائق أو نماذج ثابتة، فالأشياء تملك نموذجاً لها في الفكر كما ذهب إلى ذلك "أفلاطون" في "نظرية المثل"، أما عند "كانط"، فإن الفهم هو القدرة التي لدينا للتفكير في الموضوعات التي تتجلى فيها آثار هذه العملية حين تكون ملكة الفهم فاعلة في وظيفتها الفكرية، لأنها تنشط في محور فلسفي يشهد تنوعاً منهجياً في النظر إلى الحقائق الرياضية والتجريبية والميتافيزيقية، وهذا ما حصل في بداية الفلسفة الحديثة التي تحول فيها الاهتمام بشكل متزايد إلى حقل المفاهيم، انطلاقاً من تميز الأفكار وعلاقتها بالوضوح والبرهان مثلما حصل عند "ديكارت" الذي كثف من جهوده المعرفية التي انشغل بها كثيراً في النواحي المنهجية الرامية إلى تعقيل الواقع.

فالفكر يعيش ثلاث لحظات أساسية، وهي: لحظة التفلسف ولحظة العلم التجريبي ولحظة العلم الرياضي، أي اللحظة الإشكالية ثم اللحظة الواقعية وأخيراً اللحظة الضرورية. فاللحظة الإشكالية، هي لحظة التفلسف بامتياز. إن المبادئ الرياضية حدسية في حين المبادئ الفلسفية هي مبادئ نظرية، الرياضيات هي علم برهاني، أما الفلسفة ليست لها بديهيات، لهذا تكون وظيفة الفلسفة الاجتهاد لحل إشكالاتها عن طريق استنباط عميق ولا يجب عليها افتراض المبادئ القبلية على نحو مطلق. إذا كانت التعريفات توجد في الرياضيات والتفسير والوصف في العلوم التجريبية، فإن الفلسفة تستخدم العرض الفلسفي، لأن في الفلسفة لا توجد تعريفات، لكن توجد الحجة والعرض، والحجة ليست دليلاً على القضية، بل تعمل فقط على توضيحها وتغذيها بشبكة من التطبيقات الممكنة.

إن الانفتاح النقدي الحاصل في القرن الثامن عشر، أفضى إلى نشوء وتشكل معارف خارج نطاق الفلسفة وبمعزل عن الميتافيزيقا. فلم تعد هناك فروع الشجرة جذعها الطبيعة وجذورها الميتافيزيقا كما كان يقول "ديكارت" في مبادئه، بل أكثر من ذلك فلم نعد نطلق اسم الفلسفة على كيان عضوي يضم سائر المعارف ولم تعد الفلسفة مرادفاً للعلم. إن الشجرة الديكارتية المشهورة والتي كانت تجمع في نسق واحد مختلف المعارف أصبحت غابة، وبالتالي سيتحول مفهوم الفلسفة بفضل الممارسة النقدية من محبة الحكمة إلى حكمة مؤسسة على علوم عصرها، "لأن المقصود بالنقد ليس ما هو شائع أحياناً من حرص على كشف

العيوب؛ وإنما نعني بالنقد وزن الأمور بالميزان العادل بحيث ينجم عن هذا المؤاخذة على العيب إذا كان ثمة عيب وإطراء الصواب حيث كان صواب. هذا ما ينبغي أن يكون عليه النقد في جوانب الحياة" (1).

في هذا السياق، يكون النقد الذي بادر به "كانط"، قد وقع تحت تأثير فلسفي يهدف به إلى فصل المباحث الفلسفية عن المباحث الميتافيزيقية، وذلك عن طريق توسيع إجراءات النقد الذي يمثل عند "كانط" إستراتيجية محددة لمواجهة فشل الميتافيزيقا أمام نجاح العلم، فالميتافيزيقا لم تتمكن من انتهاج الدروب الآمنة للعلم؛ فمنهجها كان إلى ذلك تخبط عشوائي بين المفاهيم. فالنقد كما فهمه "كانط" ومارسه في دروسه ليس نقدا لتاريخ الفلسفة وليس نقد الكتب أو الأنساق والمذاهب، وإنما هو نقد العقل ذاته بذاته، أي مثول العقل أمام محكمة النقد ليكشف عن إمكانياته فيستغلها ويعرف حدوده فيلزمها. بهذا المعنى سيكون النقد ترنسندنتاليا، أي أنه نقد فلسفي للشروط القبلية لإمكانيات ممارسة التفلسف. وبهذا يوفق "كانط" بين المذهب العقلي والمذهب التجريبي، ويصل إلى نقطة أبعد بكثير من مجرد التقابل بين الفكر والحس. فبالإحساسات نستطيع الوصول إلى علم صحيح، لأنها تخضع كما يخضع الفكر نفسه لصورة عقلية أولية. لهذا أحدث "ثورة كوبرنيكية" في نظرية المعرفة، حيث لم يعد الاهتمام منصبا على الوجود (الكون) بل أصبح الاهتمام يتجه بكل ثقله إلى البحث في إمكانات العقل البشري، كذلك تتجلى محاولاته لإنقاذ الفلسفة والعلم والدين من النزعات الشككية والدغمائية.

## المصادر والمراجع:

محمد المصباحي: المفاهيم تكونها وسيورتها، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية كلية الرباط، ط1، 2000.  
- نجيب بلدي: دروس في تاريخ الفلسفة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2004، ص 97.

- محمد مفتاح: المفاهيم معالم، المركز الثقافي العربي، بيروت- الدار البيضاء، ط1، 1999.

<sup>1</sup> - محمد فتحي الشنيطي: أسس المنطق والمنهج العلمي، دار النهضة العربية، بيروت- لبنان، 1970.